ثقافة

عودة الى شيخ المؤرخين

الدكتور نقولا زيادة

وقع في حب التاريخ.. شهد عليه وعلّمه بدقة وعناية

الدكتور نقولا زيادة شيخ المؤرخين الراحل

مرة اخرى نعود الى نقولا زيادة.. بعد عمر مديد، رحل المؤرخ الشهير، او بالأحرى، شيخ المؤرخين العرب الدكتور نقولا زيادة الذي صار هو التاريخ.

جيل ينطوي وتنطوي معه صفحة المؤرخ والباحث والمربي والاكاديمي، الذي كتب التاريخ وشهد عليه وعلّمه في كبريات الجامعات، تاركا في المكتبة العربية ٤٠ كتابا بالعربية، و٧ كتب بالانكليزية و١٢ كتابا مترجما، وهي تتمحور حول التاريخ القديم والحديث معا، وتتميز بشمولية المعرفة ودقة المعالجة وسهولة التعبير.

منذ زمن طويل، اخذت أقرأ ما كان يكتبه الدكتور نقولا زيادة، ليس في ميدان التاريخ فحسب، بل ما يتفرع عن التاريخ من علم وحضارة وفكر ولغة وجغرافيا وأدب رحلات.. ولم اتعرف عليه شخصيا، الا في اواخر العقد الثامن من القرن الماضي، حيث عرّفني اليه الشاعر والمفكر الدكتور اديب صعب عندما كانت الطائرة تقلنا من مطار لارنكا في قبرص الى مطار بغداد في العراق.. يومها اكتشفت ما كنت لا اعرفه عن نقولا زيادة، اكتشفت تواضعه الذي يُسقط من امامك كل الحواجز التي تفصل بينك وبينه، واكتشفت مرحه وحبه الكبير للحياة.

بعد لقائي الاول به، تعددت لقاءاتي معه، في منزله الواقع في شارع ماري كوري في بيروت، وفي اماكن ومناسبات اخرى.. وهكذا، ازدادت معرفتي به ومعلوماتي حول مسيرة حياته الخاصة والعامة معا.

نقولا زيادة ان حكى، ماذا تراه يقول عن نفسه؟

انه فلسطيني الأصل، ومن واحدة من المدن المقدسة في عالم المسيحية، الناصرة. لكنه ولد في دمشق لأن والده كان يعمل في سكة حديد الحجاز التي بوشر العمل بها في سنة ١٩٠٠، وبعد ثماني سنوات بالضبط، وصل القطار الاول من دمشق الى المدينة. وهو مولود في اليوم الثاني من شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٧، وسُمي نقولا لسببين: اولا لأن يوم مولده كان قريبا من عيد القديس نيقولاوس، والثاني ان صاحب البيت الذي كانوا يسكنون فيه كان اسمه نقولا وكان صديقا لوالده. فاجتمعت الدنيا والدين معا، في هذه المناسبة.

توفي والده وهم في دمشق، في أواخر سنة ١٩١٥. فعادوا الى الناصرة، امه وأطفالها الأربعة. كان هو الاكبر بينهم، وكان عمره يومها، ثماني سنوات وبضعة شهور.

كان من الضروري ان تعمل امه لاعالتهم. جده لامه، كان يعيش بشكل مستور، وكان يمكنه ان يُعنى بهم في اسرته الصغيرة، لكن امه وجدت انها في ذلك الوقت تأتي لتلقي عبئا على والدها، وكان قد ناهز السبعين من عمره. فعملت في بلدة صغيرة تقع في شمال فلسطين اسمها جنين، ولهذا اقاموا في هذه البلدة نحو خمس سنوات. ولما وصل الى جنين، كان قد تعلم القراءة والكتابة باللغة العربية واشياء اخرى، في مدرستين بدمشق، واحدة للفرير والثانية مدرسة خصوصية. كما انه تعلّم في الناصرة. فكان يفك الحرف فكا جيدا. هذه القضية مهمة، لانه في جنين، كانت القوات الالمانية قد احتلت مبنى المدرسة واستعملته لاقامة صف الضباط في الطيران الالماني الذي كان له مركز في جنين. هذا يعني، انه لم تكن هناك مدرسة لا خصوصية ولا رسمية، فالمدرسة الوحيدة التي تعلّم فيها لمدة سنتين هي الشارع والأزقة، هو وجميع الذين هم من جيله او الذين كانوا اكبر منه. انما الفرق بينه وبينهم، انه كان يجيد القراءة.

الآن، نتحدث عن جنين في اواخر الحرب العالمية الاولى واوائل الاحتلال البريطاني.

جنين بلدة صغيرة كان عدد سكانها في حدود الاربعة الاف نسمة، وعدد الذين يقرأون في ذلك الوقت كان قليلا، والاشخاص الذين كانوا يملكون الكتب كانوا اقل. ولذلك فان الكتب التي حصل عليها، كانت من نوع الكتب التي تفتح الآفاق، لا علميا ولا فكريا، ولكن اسطوريا مثل: الف ليلة وليلة، والأميرة ذات الهمة، وتغريبة بني هلال، الخ.. هذه هي الكتب التي قرأها كما انه قرأ - بعدئذ - كل ما وقعت عليه يده.

المهم، ان اصحاب هذه الكتب التي كان يستعيرها منهم كانوا يدركون انه معني بالقراءة، فلم يمنع احدهم كتابا عنه.

في اواخر ١٩١٨، فتحت المدرسة والصف الذي دخل اليه كان اعلى صف في المدرسة وكان في ذلك الوقت في سن ١١ سنة، وكان هناك طلاب في سن ١٥ و١٦ سنة اذاً، هم من منتوج الحرب العالمية الاولى.

في شهر تموز (يوليو) ١٩٢١ تقدم لامتحان الدخول الى دار المعلمين الابتدائية في القدس، فنجح وقُبل، وقضى فيها ثلاث سنوات، من ١٩٢١ الى ١٩٢٤ يتعلمون فيها على اساتذة

جيدين وممتازين، لكن مستوياتهم في الصفوف لم تكن متساوية ولا متوازية من هنا، كان الواحد منهم، كما يقول المثل «الشاطر بشطارتو». بالنسبة اليه، فان اعتياده على القراءة في جنين، حمله معه الى دار المعلمين، بمعنى ان المدرسة في ذلك الوقت، وهي كانت حديثة العهد، كان فيها مكتبة صغيرة، ويستطيع القول، انه لم يترك كتابا الا وفتحه، وهكذا اعتاد على ان يتعامل مع الكتاب. وكان هناك ايضا، مجموعة كاملة من مجلة «المقتطف»، فكانوا يقرأون فيها «المقتطف» القديم، وكان يأتيهم الى دار المعلمين اشتراكا، اضافة الى «المقتطف»، «الهلال». وهذه كانت المدرسة الاولى بالنسبة اليه، وكذلك بالنسبة الى ابناء جيله.

وعندما انتهى من دار المعلمين، في سنة ١٩٢٤، شعر بشيء من الاطمئنان، من حيث المورد، اي اصبح معه شهادة، وهو مكلف بأن يعمل في ادارة المعارف في فلسطين، لانه تعلم مجانا، وهذا ما كان يريده. من سوء حظه، او من سوء حظ امه، انها توفيت في السنة التالية لتخرجه. فلم تستفد من مساعدته لها.

السنة الاولى من حياته التعليمية قضاها في القرية، وفي السنة الثانية اي في سنة ١٩٢٥ نقل الى مدرسة عكا الثانوية.

الظروف وحدها، شاءت ان يهتم بتدريس التاريخ. فهو لم يكن يحب التاريخ ولم يخطر في باله في يوم من الايام ان يكون مؤرخا.

في الواقع، انه بعد ثلاث سنوات من تركه دار المعلمين، استمر في دراسة الرياضيات على نفسه، لان هذا الموضوع هو الذي كان يحبه، وكان يأمل الحصول على بعثة حكومية للجامعة الاميركية في بيروت، وحصل عليها، وبما ان اخته واخويه كانوا في عهدته، ولم يكن هناك احد غيره للاهتمام بهم، اعتذر.

وظل يعلّم في مدرسة عكا مدة عشر سنوات، وخلالها وقع في حب التاريخ، واهتم به، تعلّمه وعلّمه، ولكن بكثير من الدقة والعناية. وركز اهتمامه بالتاريخ القديم، والآثار، فزار تقريبا كل مكان تمت فيه حفريات اثرية في فلسطين وفي جنوب لبنان، و في سنة ١٩٢٥ زار مدينة جبيل وكانت الحفريات في عهدها الاول، وكان البروفسور مونتي يشرف عليها في ذلك الوقت.

احيانا، كان يطرح عليه هذا السؤال: ولماذا الاهتمام بالتاريخ القديم؟ لانه كان يشعر دائما انه يحب ان يتعرف الى الاصول، والتاريخ القديم يعطينا الاصول.

وكما سبق ذكره، عاش نقولا زيادة، عشر سنوات في عكا، في صحبة التاريخ القديم، فضلا عن ذلك، كان يثقف نفسه - بقطع النظر عما يقوله الناس عن معنى الثقافة وفهمها - بمعنى انه قرأ في الاقتصاد والفلسفة والسياسة والاجتماع، حتى يشعر انه من بني آدم، وليس معلما للتاريخ فحسب. فهو من زمان تخطى ما يمكن ان يسمى «صنايعي» في التاريخ، ولم يكن يستطيع ان يقول انه اصبح معلما ماهرا في صناعة التاريخ، لكنه كان بدأ ان يكون كذلك.

في سنة ١٩٣٥ حصل على بعثة للدراسة في جامعة لندن، للحصول على شهادة البكالوريوس او الاجازة في التاريخ، والتاريخ القديم، ولكنه اهتم اهتماما خاصا بالتاريخ اليوناني والروماني الكلاسيكي. وكانت السنوات الاربع التي قضاها هناك، سنوات مفيدة جدا، لانه كان لديه على الاقل ثلاثة من الاساتذة من الدرجة الاولى، وهم ماكس كيري، ونورمان بينز، ومرغريت درور، فضلا عن الآخرين.

هذا من جهة ومن جهة ثانية عدد الطلاب كان قليلا ولذلك فان المناقشة كانت متيسرة وكتابة الابحاث كانت ضرورية ليست القضية كما هي اليوم، مئات ومئات من الطلاب.. يعني اكبر صف حضره كان يضم نحو ١٥ طالبا، واصغر من حضره كان فيه وحده.

بعد اربع سنوات، وشهادة بكالوريوس طويلة عريضة، رجع الى القدس، وعلم ثماني سنوات في الكلية العربية والكلية الرشيدية في القدس.

في هذه الفترة درس التاريخ القديم، ودرس تاريخ اوروبا في العصور الوسطى، ودرس تاريخ العرب، وانتقل اهتمامه تدريجيا الى التاريخ العربي - الاسلامي، فبدأ بدرسه وتدريسه، والبحث عن الكليات فيه والجزئيات. ويمكن القول اجمالا، انه في اكثر ما كتب كان العمود الاصلي في التاريخ عنده هو - يقول عمود لا يقول تخصصا - الحضارة العربية - الاسلامية بمجملها، انما لم يسمح لهذا العمود ان يقضي عليه، بالعكس، ظل دائما بعيدا عنه، يجمع ما يستطيع من ادب، ومن تاريخ من جهة اخرى، فقرأ في زمانه مثلا، عن تاريخ الصين، كما قرأ عن تاريخ البرازيل والمكسيك الحديث، لانه اراد ان يرى كيف تسير الاحداث. يعني المهم عنده، لم يكن متابعة الاحداث فقط، بل ان يتفحص عن اسبابها، ان يفهمها.

حتى ادب الرحلات الذي كتب فيه، انما هو جزء من هذا الاهتمام، لان الرحالة يعطينا، في مرات كثيرة اشياء لم يعطنا اياها كاتب الجغرافيا او غيره.. لان هناك لمحات، باستطاعتنا ان نقتطف منها اشياء كثيرة ومهمة.

باختصار، فان الرحالة يعطينا صورة لا يستطيع ان يهتم بها المؤرخ، لانه لم يرها، ولم يجربها، ولم يختبرها.

من هنا فان اهتمامه الاصلي والاساسي هو تاريخ الحضارة العربية - الاسلامية، لكن فهمه لتاريخ الحضارة العربية - الاسلامية، لا يقول انه يختلف عن الآخرين، بل فيه شيء من العمق، لم يخطر على بال الآخرين ولم يهتموا بأسبابه.

من هنا فان عددا كبيرا من كتبه كان نتيجة اهتمام شخصي في موضوع ما.. وان كل كتاب من كتبه له تاريخ ودوافع خاصة.

كان الدكتور نقولا زيادة، يعتبر انه يكتب التاريخ جيدا.. وانه يعتبر من أفضل من يترجم عن اللغة الانكليزية الى اللغة العربية.. ومن ابرز اعماله في هذا الميدان، ترجمته لكتاب المؤرخ البريطاني الراحل ارنولد توينبي «تاريخ البشرية». في احدى المرات، سألته: في رأيك، من هم ابرز كتاب التاريخ في هذا العصر؟

اجابني بالحرف الواحد: جوابا على هذا السؤال سأروي لك هذه النادرة: دخل احد معلمي التاريخ الى المدرسة، وكان ذلك في الصباح، واختار طالبا لم يقرأ الدرس ولا يعرف شيئا، وسأله: ماذا تعرف عن نابوليون؟ فأجابه الطالب: «يا معلمي من الصبح بدنا نبتدي نستغيب الناس».

وعندما حاولت اثارته، قلت له: يقول فولتير، «ان المؤرخ ثرثار يزعج الاموات». فما هو تعليقك على هذا القول؟

ابتسم وقال: وهل يمكن ان يعلق احد على قول لفولتير من هذا النوع.

بيروت - اسكندر الحايك

٢٠٠٦/١٠/١٣ الحوادث - ٥٩